مُقَدِّمَة

وضع فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure مع مطلع القرن العشرين دعائم علم جديد عرف باللسانيات (linguistique) ضمّنه في مؤلَّفه الشهير " دروس في اللسانيات العامة" Cours de Linguistique Génerale ، ولقد لاقت آراؤه ونظرياته على هذا الصعيد اهتماما بالغا غيّر مسار الدرس اللغوي الحديث والمعاصر؛ لكونها قامت على توجّه تجاوز فيه صاحبه النهج التطوّري المقارن للأحداث اللغوية الذي لا يكترث باللّسان في ذاته وبنيته ووظيفته، إذْ باتت اللسانيات بعده وبفضل جهود من جاء بعده علماً يُعنى باللسان بعدّه غاية ووسيلة، فهو العلم الذي يدرس الظواهر اللسانية العامة الوجود منها والخاصة وذلك من خلال الألسنة الخاصة بكل قوم، والغاية منها الكشف عن أسرارها وقوانينها سواء كان في مستوى النظام المتواضع عليه (القانون)، أم في مستوى الكلام وكيفية تأدية المتكلمين لوحداته وتركيباته في المخاطبات (الشفاهية والكتابية)، ومرادهم الأسمى أن يصفوا اللسان البشري الوصف العلمي الدقيق بعيدا عن التحديد الكمي للمعايير اللغوية، وهي نزعة وصفية أتت أكلها بفضل جهود سوسير ومن أتى بعده من اللسانيين على ضوء حلقات ونظريات توسّعت فيما بعد وتطوّرت إلى مدارس لسانية نظرت – على تعددها – إلى اللغة بمنظارها الخاص والمّميّز لجانب من جوانبها.

وعليه نبتغي من خلال هذه المحاضرات المقدمة لطلبة السنة الثانية بقسم اللغة والأدب العربي (جامعة الثامن ماي 1945 بقالمة) تقديم صورة موجزة حول تطور علوم اللسان على امتداد عقود من الزمان بدءا بالضبط المنهجي لمفردات المقياس؛ حلقةً ونظريةً ومدرسةً، مرورا إلى إسهامات كل مدرسة في دراسة الظاهرة اللسانية ومكاشفتها من زوايا على اختلافها تبقى متفاعلة متكاملة فيما بينها.

ونهدف من وراء هذه الدروس الموزعة على مفردات المقياس إلى:

- تمكين الطالب من أساسيات المادة وأصولها نظريا وتطبيقياً.
- توجيه اهتمامات الطلبة بمادة المدارس اللسانية وإدراكه لأهميتها في جميع الأطوار التعليمية ولاسيما في مراحل البحث اللساني والتقصي ـ المنهجي . وتقديم دروس البرنامج. المسطر على شاكلة ميسرة قصد ترسيخ المحتوى في ذهن المتعلم. والتركيز على الجانب التطبيقي في عرض المادة بهدف التنبيه إلى أهميتها في المسار التعليمي.

نحاول بشيء من المبادرة تذليل بعض الصعوبات خصوصا المتعلقة بتعدد المسميات

للمفهوم الواحد بترجيح مصطلح مدعوم بحجة ، وكذا استغلال الحصص التطبيقية لإنجاز أكـبر قدر ممكن من الأمثلة وحبذا لو تكون نفسها وتوضيح تطبيقهـا مـن منظـور كل مدرسـة مـن المدارس اللسانية بين الوظيفية – الأوروبية والأمريكيـة- والتوزيعيـة والتوليديـة التحويليـة وغيرها التي يأخذ فيها المثال قيد التطبيق أنماطا مختلفة للدراسة والتحليل.

لا يعنينا هذا الخلاف بقـدر مـا تعنينـا المـادة التعلميـة الـتي سـيجدها الطالـب في هـذه المحاضرات، من رصد لأعلام المدارس اللسانية، وجهودهم ومبادئهم، وعلى وجهات نظر مختلفـة، حتّى يختمر في ذهنه مشروع المدارس اللسانية ، وقد ركّزنا فيها على الجانبين النظـري والتطبـيقي على حدّ سواء.

مدخل/ ضبط مصطلحي

المدرسة- الحلقة- النظرية

1- مدخل/ ضبط مصطلحِي: (المدرسة- الحلقة – النظرية):

يواجه الباحث في حقل الدراسات اللسانية، - وعلى وجه الخصوص - الطالب الجامعي مصطلحات متنوعة، يجدها مبثوثة في ثنايا الكتب اللغوية، من مثل: المدارس اللسانية، النظريات النحوية، الحلقات اللسانيية، المدرسة البنوية، المدرسة التوزيعية، المدرسة الغلوسماتيكية، المدرسة التوليدية التحويلية، حلقة براغ، النظرية السياقية ... وغيرها من العبارات التي تندرج ضمن هذا الحقل. فهل هناك فرق بين المدرسة والنظرية والحلقة أم أنّ المسمّى متعدد والمفهوم واحد. هذا ما سنجيب عنه قبل أن نلج للحديث عن متعلقات هذه المحاضرات التي تبني صلب هذه المادة المقررة على طلبة الماستر والليسانس.

ولتحديد الفرق بين المصطلحات السابقة، يجب أن نقف عند تعريف كل مصطلح على حدة؛ لنتمكّن من الإجابة بكلّ موضوعية وعلمية، توجّه الطالب في هذين الطورين إلى السبيل السليم، حتّى لا تتقطّع به السبل ويتيه في فوضى المصطلح، فلا المصطلح أدرك، ولا المفهوم اكتسب.

1- المدرسة مصطلحا ومفهوما:

أول من استعمل مصطلح " مدرسة " من المحدثين، هو المستشرق بروكلمان، حين تعرّض للحديث عن النحو العربي، حيث قال : " وقد قسّم علماء العربية مذاهب النحاة إلى ثلاث مدارس: البصريون والكوفيون، ومن مزجوا المذهبيْن من علماء بغداد "[1]، ودعّمت هذا الرأي خديجة الحديثي، إذ علّقت عليه بقولها " ويبدو أنّه عنى بمدرسة مجموعة النحاة الذين كانوا ينتسبون إلى بيئة نحوية واحدة "[2].

وهذا رأي أقرب من الصواب؛ لأنّ جلّ الدارسين–كما سنرى ارتضوا هذا التقسيم؛ أي تقسيم اللسانيات إلى عدة مدارس، وتواضع الدارسون تباعا على مفهوم هذه الكلمة، وأنّها تعني " مجموعة اللغويين الذين كوّنوا درسا لغ ويا في بيئة معينة، سواء أضمهم منهج موحّد خاص بهم، له أسسه وأصوله وقواعده المعروفة المستقلة، أم كان مبنيا على منهج من سبقهم إلاّ أنّهم

[1] بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ط5، ،ج 2، ص 124، 125.

[2] خديجة الحديثي، المدارس النحوية، دار الأمل، إربد، الأردن، 2001، ص 13.

استقروا في بيئة أخرى، وتأثروا بظروف البيئة الجديدة بعض التأثر "[1]، أي إن مفهوم مدرسة يخضع لعدة معايير أهمها: وجود طائفة من اللغويين، المنهج المتبع من هؤلاء في دراسة القضايا اللسانية، الأصول التي تنبي عليها المسائل اللغوية، والبيئة والزمن.

وبناء على تلك المعايير، شاعت تقسيمات عدة لمجموعة من اللسانيين، فظهرت مدارس كثيرة أبرزها: البنوية، والتوزيعية، والغلوسماتيكية، والمدرسة التوليدية التحويلية،... وغيرها. والسؤال الذي قد يتبادر إلى ذهن الدارس مفاده: هل لنا مدرسة لسانية عربية، وهل نكتفي بالمعايير السابقة حتّى نقول إنّ هذه أو تلك مدرسة لسانية .

تضم المدرسة حلقات كونها فرع منها يتبناها مجموعة من العلماء، أما النظرية فيؤسسها شخص معين ويتبعه آخرون وهي تتبدّى في مفهوم، أو مبدإ، أو تصور .

2- مفهوم النظرية Theory:

تتنازع مصطلح النظرية حقول معرفية كثيرة ومتنوعة سواء كانت علمية أو فكرية أو فلسفية أو غيرها، والنظرية مشتقة من الفعل (نظر)، ومعناه :حاول فهمه وتقصّي معناه وحقيقته بالفهم والتجريب والاختبار، وفي القرآن الكريم يقول الله سبحانه تعالى: ﴿قُل انْظُرُوا مَاذَا فِي السمَاوَات وَالأَرْض ﴾ [سورة يونس، الآية: 101] ، وتتكرر الدعوة إلى النظر في تركيب الإنسان والحيوان والنبات، وحال المجتمعات والحضارات في الكثير من الآيات القرآنية.

فالنظرية مفهوما من النظر الذي يعني " طلب معنى بالقلب من جهة الذكر،كما يطلب إدراك المحسوس بالعين"، أمّا النظرية عند الفلاسفة فهي عبارة عن " تركيب عقلي مؤلف من تصورات منسقة تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ "[2]، و هي في عُرف المجمع ومعجمه" قضيةٌ تُثبت ببرهان، و(في الفلسفة): طائفة من الآراء تفسر بها بعض الوقائع العلمية أو الفنية"[3]، وعمليا تصورات مؤلفة تأليفا عقليا يهدف إلى ربط النتائج بالمقدمات بمثابة افتراض علمي يمثل الحالة الراهنة للعلم ، ويشير إلى النتيجة التي تنتهي عندها جهود العلماء أجمعين في

---

[1] خديجة الحديثي، المدارس النحوية، ص 13

[2] عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تح: عبد الحميد صالح حمدانّ، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1990، ص 701.

[3] مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، ص932.

حقبة معينة من الزمن، ويربط عدة قوانين بعضها ببعض، ويرد إلى مبدأ واحد يمكن أن يستنبط منه حتما أحكاما وقواعد"[1]. على أن النظرية تبدأ بالفرضية وتنتهي بالقانون، إذا ما ثبتت على وجه اليقين صحتها بما لا يدع مجالا للشكّ.[2]

النظرية Theory بالمعنى الحقيقي إنشاء تنظيري للعقل، يربط النتائج بالمبادئ مقابل ممارسة application في نظام الوقائع، وبكيفية عامة تتعارض الممارسة مع النظرية. فعلى سبيل المثال؛ فالفيزياء البحتة هي بحث نظري، والفيزياء المطبقة تتعلق بالتطبيق للنظريات الفيزيائية، كما نقصد بالنظرية اللسانية كل تفكير يتناول بالعقل مُشكلات لغوية قصد تطويرها وتحسينها أو تغييرها أو تجديدها لزاد من الأفكار والمفاهيم المنظمة والمنسجمة منهجيا.

أ- موضوع النظرية ومجالها:

الحقيقة إن النظرية هي الوجه المقابل للنظام؛ ذلك أن العلماء يستنتجون الأنظمة التي تشتمل عليها الظواهر، فيقدمون مجموعة من الفرضيات التي تصف هذه الأنظمة، وقد نقصّ اللغويون المعاصرون على علاقة النظرية بالنظام، وكونها جهدا ذهنيا وفكريا للغويين أنفسهم، إذْ يؤكد هيلمسلف Hjelmslev على أنّ النظرية اللغوية بالضرورة استنتاجية.[3]

أمّا إذا ربطنا النظرية بتصوراتنا لظاهرة معينة فإنّ " النظرية هي الفرضية المحققة بعدما جرى إخضاعها لرقابة المحكمة العقلية، فتظل صالحة لمواكبة التطور العلمي، وأن تبقى خاضعة باستمرار للتحقق ونقد الوقائع الجديدة التي تظهر، وإذا اعتبرت نظرية ما على أنها كاملة، وجرى التوقف عن التحقق فيها بالاختيار العلمي أصبحت مذهبا"[4]؛ بمعنى أنها تصبح مرجعية تتحكم في تصوراتنا لظاهرة معينة .

---

[1] محمد فتحي عبد الله، معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم للألفاظ العربية والإنجليزية والفرنسية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 2017، ص327

[2] محمد عبد العزيز الدايم: النظرية اللغوية في التراث العربي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، القاهرة، مصر، 2006، ص 18.

[3] المرجع نفسه، ص19.

[4] صلاح قنصوة ، فلسفة العلم ، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1981، ص95

وهي في سياق دراسة الظواهر اللغوية أو العلمية جملة من " الفروض الذهنية أو العقلية التي يقدمها العلماء في استنباطهم للأنظمة التي يدرسونها "[1]

و إذا تمّ تحقيق ربط ما بين المنهج و النظرية في سياق ما ، فإنّ النظرية في هذا المستوى هي " التي تشد الوقائع والمفهومات والفروض والقوانين في سياق ملتئم واحد، بل إن وجودها متضمن بصورة أو بأخرى في كلّ منها ، و بها يُقدّر دور كلّ من الوقائع والمفهومات والقوانين في تحقيق غايات المنهج العلمي، كما أن الحكم على كفاءة المنهج إنما هو حكم على كفاءة الطريقة التي أسلمت إلى النظرية" [2].

فيها يحدد موضوع كل علم من العلوم بشكل منهجي، حتّى يتبين للباحث إخراج ما ليس فيه وحصر ما هو له، ويتم ذلك بوسيلتين اثنتيْن:

أولهما: الممارسة الضمنية: وفيها يحصر موضوع كل علم، مع القدرة على استنباط مكونات الموضوع .

وثانيهما: الممارسة المنهجية : وهي امتداد للأولى يجعل فيها الموضوع المحدد سلفا، بمثابة مقدمات نظرية يستعين بها الباحث على الخوض في غمار الموضوع المحدد وتطبيقاته ، إذ لابد من ضبط قواعد تحديد الموضوع ومفاهيمه، ويقصد بمجالها تحديد اللغة التي تعد مادة الوصف والتقعيد ، ومن ثمّ استخلاص المدو نة التي تمثلها .

إذن فالنظرية بوجه عام، هي:

- ما يوضح الأشياء والظواهر توضيحا لا يعول على الواقع. وافتراض علمي يربط عدّة قوانين بعضها ببعض، ويردها إلى مبدأ واحد يمكن أن نستنبط منه حتمًا أحكاما وقواعد.
- جملة تصورات مؤلفة تأليفا عقليا تهدف إلى ربط النتائج بالمقدمات.
- افتراض علمي يمثل الحالة الراهنة للعلم، ويشير إلى النتيجة التي تنتهي إليها جهود العلماء جميعا في حقبة زمنية معينة.

[1] أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط2، 2001، ص 1455.

[2] صلاح قنصوة ، فلسفة العلم، دار الثقافة، القاهرة، ط1، 1981، ص 95.

- مجموعة من الافتراضات والمبادئ المقبولة علميا توضع لتحليل بعض الظواهر، أو تفسير طبيعتها أو سلوكها ... وإنما تطرح النظرية أولما تطرح على صورة فرضية أو فنية، فإن أيدتها الوقائع والتجارب على نحو خال من الثغرات الهامة ارتقت إلى مرتبة النظرية.

ب- شروط النظرية اللغوية :

لكي تتأسس نظرية ما في حقل معرفي ما؛ لابد أن تتوفر فيها جملة من الشروط وهي:" العموم والتجريد والاكتمال والبساطة، والاقتصاد والاتساق العام والكفاية في وصف اللغات، وصلاحيتها للتطبيق على أكبر قطاع من اللغات"[1]، وكل شرط من هذه الشروط يتفاوت من لغة إلى أخرى باعتبار اختلاف اللغات في بعض الخصائص واشتراكها في الأخرى.

خلاصة القول: إن من الدارسين المحدثين من استعمل كلمة مدرسة، وهو مستوحى من المدارس الأدبية، ومنهم من استعمل اتجاها أو نزعة، وكلّ ذلك لا ينقص من قيمة النحو العربي في شيء فأيهما استخدم فلا ضير، ونحن نؤثر استخدام مصطلح مدرسة؛ لأنه شاع عند الدارسين وانتشر بين الباحثين والطلبة، فلا ينبغي أن نرهق كاهلهم بمصطلحات أخرى لا تغيرّ من المفهوم الذي يعنيه مصطلح مدرسة لسانية.

[1] محمد عبد العزيز الدايم: النظرية اللغوية في التراث العربي، ص 22.